

كتابة السيرة الجماعية للمدينة الوطن

كيف يمكننى أن أصدق - وأنا أشهد طيور الحمام الأبيض تحلق فوق مسجد الحسن الثانى بالدار البيضاء، وترش رشات من عبير العنبر فى الفضاء الملون من حوله - أن ملائكة بيضا، لا تحلق هنا وهناك، ولا تلوح بأجنحتها للمصلين الذين شاركتم صلاة الجمعة، قبل أن تعود ثانية إلى السماوات العلاء؟.

مسجد الحسن الثانى بالدار البيضاء، ذلك الصرح الرابض فى قوة وجلال وجمال على البحر المحيط، بمنارته التى تشق عنان السماء الزرقاء، تتسع قاعة الصلاة به لـ ٢٥ ألفاً من جموع المصلين، ويتسع فناءه لجموع من البشر تقدر بنحو ٨٠ ألف إنسان، إنه المسجد الجامع للفنون الإسلامية عبر العصور، والمجسد للعمارة الإسلامية فى قمة إنجازاتها.

مسجد الحسن الثانى، أثر سامق وشاهق، أنجزته جموع فقراء المغرب من الصناع والحرفيين التقليديين والفنانين والعمال، الذين استقدموا من الريف والجبل والصحراء، لكى يقدموا من عطاءات الفنون التقليدية المغربية ومن الهندسة المعمارية العربية الإسلامية ما يذكر القاصى والدانى بفنون الأدارسة والأمويين والفاطميين والمرابطين

والموحددين والمرينيين والسعديين والعلويين في فاس ومراكش ومكناس
والرباط وسلا.

في قباب المسجد وأسقفه ومشربياته وأبوابه، أشكال نباتات
وزهور، رسمتها أنامل مغاربة قادمين من الريف والجبل والصحراء
على المنقوش والمزخرف من خشب الأرز المجلوب من جبال أطلس،
وتشكيلات هندسية بديعة تعتمد المثلث والمربع والداائرة والسداسي
والثمانى، وتتشكل انطلاقاً من جزء مساحة صغيرة وتتكرر وتتوزع
في محاور متنوعة.

أرضية المسجد وأعمدته وجدرانه وأحواضه، يكسوها الزليج والخزف
المزخرف، كما تحيط زخارف الجبس بجدران المسجد على هيئة نقوش
عازلة تفصل تليبيسات الفسيفساء في كل القباب. ويغضى الرخام النفيس
نو اللون الوردى الجدران الداخلية للمسجد، بينما الرخام الشفاف
القمحى الفاتح يغطى جدرانه الخارجية. وتزدان جدران المسجد وأسقفه
بكتابات شعرية ونثرية وآيات من القرآن الكريم محفورة على الجبس
والخشب والرخام تتبع فنون الخط العربى كالقيروانى والأندلسى
والمغربى الفاسى والقسطنطينى والكوفى.

هنا فى مسجد الحسن الثانى، الرابض فى قوة وجلال وجمال على
البحر المحيط، أكاد ألمس روحانية الجماعة حين تتوحد وجهتها
وكلمتها، وأكاد ألاحظ - مثل الدكتور ثروت عكاشة - فى تداخل فنون
الزخرفة بفنون الخط العربى على الجدران والأسقف من حولى، وفى

امتزاج الزخارف الهندسية والنباتية، فكرة محددة عن العالم والحياة،
عن الله والإنسان؛ تستند إلى أن الله الذى هو كنه هذا الوجود، منه بدأ
وإليه ينتهى، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن.

من هذه النظرة - يقول الدكتور ثروت عكاشة - اختلفت فنون الإسلام
اختلافاً بيناً عن فنون الغرب، فبينما يرفع الفنانون الإغريق والرومان
الإنسان إلى منزلة يمجّدون فيها عُرِيه في تماثيلهم، نجد الفنان المسلم
ينظر إلى أعماق الإنسان أكثر مما ينظر إلى مظهره الخارجى، على رغم
إيمانه بأن الله سَوَاه فأحسن صورته، وأن الفنان المسلم ليستهين بالعالم
المادى ويراه عَرَضاً زائلاً ومنتعة فانية إن لامسها لامسها فى رفق، مؤمناً
دائماً بأن الخلود الحقيقى إنما هو خلود الروح.

أمواج البحر المحيط تضرب بقوة كتل الحجر الصلد والأسمنت
المسلح المقرصة أسفل السور الحجرى الممتد بامتداد شارع الكورنيش.
طيور جارحة سوداء تحلق فى سماء زرقاء أرجوانية جريحة.
وفتى وفتاة يجلسان فوق سور الكورنيش يعطيان ظهريهما للمدينة
الكبيرة ووجهيهما للبحر المحيط. أقترب منهما، فتنسرب إلى
كلمات غاضبة بالمغربية المحلية تخالطها عبارات بالفرنسية، فهل
يعدان العدة لهجرة سرية ذات ثمن فادح هرباً من مدينة لا توفر
العمل لأبنائها.

هواء البحر المحيط يدفع بالتراب وقصاصات صحف وعلب عصير
فارغة ملقاة هنا وهناك فى حركة دائرية. أعطى ظهري للبحر المحيط

مولياً وجهى إلى المدينة الكبيرة. فى منطقة غير ممهدة تتوسط وتحازى شارع الكورنيش ذا الاتجاهين وتنتظر من يستزرعها أشجاراً وزهوراً، رأيت عجوزاً حافى القدمين مرتدياً خرقاً بالية مستلقياً فى غير مبالاة، ونظراته زائغة لا تستقر فى اتجاه.

عبرت شارع الكورنيش والتفت ورائى إلى العجوز فرأيته من جديد وسط السيارات المسرعة التى تقطع شارع الكورنيش فى كلا الاتجاهين، ومن خلفه المسجد الكبير بمنازته التى تشق عنان السماء، والبحر المحيط، والفضاء الجريح الممتد تحلق فيه طيور جارحة سوداء، والفتى والفتاة اللذان ربما لا يزالان يعدان العدة لهجرة سرية قد تكلفهما حياتهما.

لم يكن سكان شارع محمد الخامس بالدار البيضاء، قرب السوق المركزى، فى حاجة إلى فيلم «على زاوا» للمخرج المغربى «نبيل عيوش» للتعرف إلى المخلوقات الصغيرة ذات الملامح القاسية، التى تعيش بجوارهم داخل فندق «لينكولن» المهجور. أقرأ للكاتب «عدنان ياسين»: أطفال بأمزجة صعبة وأرواح تشتعل بالعنف والعدوانية. أطفال لا يشبهون كثيراً أبطال فيلم «نبيل عيوش».

من مقهى فى شارع «مولاي يوسف»، إلى أخرى فى شارع «بورديو» وإلى الثالثة فى شارع «باريس» أجد نفسى وقد استحوزت عليها رغبة عارمة فى محاولة فهم ما تلتقطه عيناى من صور ومشاهد، وما يتسرب

إلى أذنسى من عبارات مبتورة وجمل غير مكتملة فى أغلب الأحيان، وأجدنى أسأل مثل «نجيب محفوظ»: هل الإنسان يستحق ما يعانىه؟
مقهى «ريكس كافيه» الذى شيد باستديوهات هوليوود، وصورت فيه معظم مشاهد فيلم «كازابلانكا» الذى أنتج عام ١٩٤٢، وحقق من ورائه «همفرى بوجارت» و «إنجريد برجمان» شهرة كبيرة، صار واقعاً فى المدينة العتيقة بالدار البيضاء بالقرب من الميناء البحرى، على يد الدبلوماسية الأمريكية السابقة «كاشى كريجر». يحرص «ريكس كافيه» على أن يعرض فى أمسيات الآحاد فيلم «كازابلانكا» على شاشة تليفزيون كبيرة بالطابق الثانى للمبنى المؤلف من ثلاثة طوابق، وزبائن ريكس كافيه الذى شيد على الطراز المغربى التقليدى هم خليط من رجال الأعمال المغاربة والسائحين والأجانب المقيمين بالدار البيضاء، والأثرياء.

فى مقدمة رواية «الجنازة» يقول «خوان جويتسلو»: البطل الحقيقى للرواية ليس هو الروائى ولا الزعيم المغتال الذى ينتهى النص بدفنه، إنه «الدار البيضاء»، الحاضرة الكبرى، الرائعة البائسة.

فى رواية «طريق السحاب» للروائى المغربى «أحمد المدينى»، يخوض فى المعلوم والمجهول وللاحقة الأوهام والأوزار ولتأزيم المواقف والأحداث أمام سرعة تدخل ويقظة السلطة، ولإسكات القضايا الكبرى، ولنصيغة سؤال الأزمة وأزمة السؤال: سؤال النظام والإقطاع والتعبئة الجماعية والإضراب. الجنون يفرز مفهوماً آخر للحياة، كما أفرز

وشخصاً وأسماء أخرى من زماننا.

يقول «عبد الرحيم العلام» فى نقده للرواية إن «براقش» هى حتماً تلك المدينة الفاضلة والموعودة، التى تحدثت عنها رواية «طريق السحاب»، هى مدينة «الدار البيضاء» بلا شك فى صورتين الواقعية والمحتملة، وفى تجسيدها لبطولة مدينة جماعية، «الدار البيضاء» تحضر فى الرواية كطبوغرافيا وكمعطى تاريخى وسياسى واجتماعى وذهنى وسلطوى، هى كذلك مجال لصوغ أسئلة المجتمع الغربى فى إحدى أهم مراحلها بحيث تحكى سيرة «الدار البيضاء» وهى تتقاطع مع سير مدن أضحت خالدة ورمزية فى الذاكرة الحضارية والتاريخية.

قال الراوى «أحمد المدينى»: فى كل موقع بشرى يُطلق عليه الرصاص فى نهاية الرواية يتبعه تناسل لمواقع بشرية أخرى تكونت بسرعة عجيبة. وفى نهاية الرواية، وليس فى نهاية الحكاية - يقول عبد الرحيم العلام - نصادف أن أحياء وشوارع وأزقة «الدار البيضاء» تطفو كلها فى لحظة واحدة على سطح الحكاية والتاريخ، مساهمة من الرواية فى كتابة السيرة الجماعية لهذه المدينة التى تشبه سيرتها سيرة مدن أخرى من هذا الوطن. وما قيام الرواى بالاستشهاد بمقطع سردي مكثف يحكى عن نفس الأجواء، من رواية «أغادير» بالفرنسية «لمحمد خير الدين»، سوى إحالة نوع من البطولة الجماعية للمدينة المغربية فى صنع وصياغة تاريخ المغرب الحديث، وترميم الذاكرة الجماعية التى أصابها البتر والبياض والخراب والزوال.

مليكة الفاسي، وقّعت على وثيقة الاستقلال

وحدي في الدار البيضاء، أخطب الأبيض النقي كأنه قلب عاشق محب لم يتغير ولم يتقلب. أيها الأبيض الناصع والزاهي، هل تعدني بآلا تخلع رداء البراءة مهما تعددت الجراح ومهما واجهت من خيانات الألوان؟ أيها الأبيض الجميل، هل تدلني على ورده الصقيع التي لا تتغير رائحتها بتغير الفصول والأسماء؟

الأبيض، في واجهات البيوت، وفي الغمام الكثيف، وفي طيور الحمام في ساحة محمد الخامس والأحمر الدامي في شمس المغيب. ومساء حزين يسدل سقائه القاتمة على العالمين. أنظر في مرآة نفسي فأرى فيض شعور يحرك مكان الحنين إلى أن أطرح أسئلة لا يجاب عنها بالصمت، وإلى أن أتكلم فأجد من يسمعي ولا يحتفظ فقط إلا بالكلمات التي ينتظر سماعها.

تغيم المرثيات في عيني، وتتجدد الأشكال من محتواها، ويتصدر الفراغ المشهد. تتسلل الألوان لتعبر عن مشاعر اللحظة العاطفية في توزيع أوركسترا ليحاكي إيقاعه إيقاع موسيقى الشعر، يجذب إليه الحمام والعصافير والفرشات وأناشيد الملائكة.

تتفتح مغالق روحي، ويخف جسدي ويشف، وأجدني أسبح بعقلي في المطلق والمجرد. أسأل: هل يحول الجسد بين الروح وبين رؤية

ضوء الحقيقة ومشاهدة الحكمة في صفاتها؟.

تقول الحكاية القديمة: إن شاباً خجولاً أحب فتاة جميلة مرحة، هو كان يعنى من عشق الروح ولا يلقي بالاً إلى عشق الجسد، وهي كانت تعنى من عشق الروح والجسد معاً. نشب الخلاف بينهما، الشاب الخجول كثيراً ما كان يدلى لمحبووبته بتصريحات مفادها أنه يحب روحها وكفى، وكانت الفتاة المرحة الجميلة تجاهر بحبيبها كثيراً بأن «الروح لا تبصر إلا بعين الحواس»، ويأن «الروح تعتمد في أداء عملها على حياة الجسم». في يوم حزين ملبد بالغيوم حسم الشاب الخجول أمره وقطع علاقته بفتاته الجميلة المرحة ذات العينين السوداوين الصافيتين.

في القطار العائد بي من الدار البيضاء إلى مراكش، اتخذ مجلسي في ديوان سبقني إليه رجل يجلس في الأريكة المقابلة ويقرأ في رواية بالفرنسية، وبجانبه إلى جوار النافذة وفي مواجهة امرأة في مقتبل العمر تقرأ في مجلة «زهرة الخليج» التي تصدر في دولة الإمارات العربية المتحدة. وعلى الأريكة التي أجلس على طرفها المجاور للنافذة وإلى يميني، تجلس امرأة شابة ترتدى الزي المغربي وتتبادل الحديث باللهجة المغربية مع فتاة ترتدى الجينز.

مسافرون خمسة جمعتنا الصدفة وحدها في ديوان بعربة قطار يقطع أرض المغرب الأقصى. ملامح الرجل الجالس على الأريكة المقابلة والممسك بالرواية الفرنسية في يده تشي بأنه غير مستعد لفتح باب

حوار مع أحد. المرأة الشابة وفتاة الجينز إلى يميني غارقتان في نقاش أدركت بعد جهد أنه يدور حول عنف الأزواج. من وقت لآخر تلتقي عيناي بعيني المرأة في مقتبل العمر الجالسة أمامي، ثم تعود هي إلى مجلتها وأعود أنا إلى المنظر الطبيعي عبر نافذة القطار. تذكرني العينان السوداوان الغامضتان بعيني «ثريا المجدوب» زميلة معهد البوليتكنيك بوسط لندن، عندما كنت أنا أدرس فيه دبلوم الترجمة وكانت هي تدرس اللغة الروسية.

علامات ألم ترتسم على وجه المرأة الشابة التي تجلس أمامي، على أثرها تضع المجلة على الطاولة التي تتوسط المسافة بيننا والمثبتة أسفل زجاج النافذة، لتنحني إلى حيث السوستة التي تغلق الجزء الممتد من الحذاء الجلدي الأسود الذي يلف الساق إلى أعلى حتى أسفل الركبة، في محاولات متكررة لفتحها، لكي تحرر قدمها وساقها من ضغط الحذاء الذي يسبب لها ألماً، لكن بدون جدوى. غالبت خجلي وأنا أعرض عليها مساعدتي في فتح سوستة الحذاء. ابتسمت في خجل وهزت رأسها موافقة. لكن مقبض السوستة الصغير الذي كسر نتيجة محاولاتها السابقة صعب من مهمتي. المرأة الشابة والفتاة الجالستان إلى جوارى وكذلك الرجل الذي يقرأ في رواية بالفرنسية عرضوا مساعداتهم لكنهم فشلوا واحداً بعد الآخر فيما فشلت فيه أنا. جاءت النجدة أخيراً عند قدوم مسافر جديد إلى ديواننا، فقد تكفلت حقيبته بما فيها من أدوات ومواد في فتح سوستة الحذاء، وفي إشاعة جو من الارتياح والبهجة بيننا.

«سهام حامى» المرأة الشابة التى تجلس فى مواجهتى ، متزوجة من رجل أعمال يمدنى يعمل فى دول الخليج ومن وقت لآخر يأتى إليها فى المغرب لكى يصطحبها لقضاء أجازة طويلة فى مصر التى تحبها كثيراً. أخبرتنا «سهام» أنها تقضى أوقات فراغها فى القراءة وفى زيارة صديقاتها، وأنها متوجهة إلى مراكش لقضاء أيام مع صديقة لها هناك.

«إلهام» ، الفتاة التى ترتدى الجينز ، عادت إلى الدار البيضاء بعد أن أمضت سنوات فى كندا برفقة صديق لبنانى ، وعندما حان وقت رحيلها إلى الوطن ، اكتشفت أن ما جمع بينها وبين صديقها اللبنانى لم يكن حباً وإنما كان أقرب إلى الألفة التى تجمع بين غريبين فى مدينة غريبة كبيرة تفتقد إلى دفء العلاقات.

«مريم» ، صاحبة النصيب الأكبر من الجمل والعبارات الغاضبة التى تصب جميعها فى غير صالح الرجال ، جمعت ملابسها فى حقيبة وتركت منزل الزوجية فى الدار البيضاء غاضبة لتسافر إلى والدتها فى مراكش ، وكل ما يشغل تفكيرها هو طلب الطلاق من زوجها الذى يضربها بعنف بعد كل شجار ينشب بينهما.

أفاد تقرير صدر عن مركز تابع للجمعية المغربية للدفاع عن حقوق النساء ، بأن العنف المعنوى والمادى الممارس ضد النساء تضايف ، وذلك بعد أشهر قليلة فقط من التعديلات الجريئة التى أجريت على قانون الأسرة.

فى رأى الكاتب «ياسين عدنان» أن القوانين وحدها لا تكفى ، ففعاليتها تبقى رهينة عقلية المجتمع والظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المحيطة به. وأن مشكلة الجمعيات النسائية المغربية هى أنها تتصور دائماً أن المشكلة تكمن فى الذكور الذين يبدون نوعاً من الممانعة تجاه مدونة الأسرة الجديدة. وكذلك المحافظين الذين مازالوا يتلكئون فى تطبيق قوانينها، إلا أن الجمعيات النسائية المغربية تنسى أن جزءاً كبيراً من جهدها التوعوى يجب أن يتوجه إلى النساء فى الأساس.

يشير «ياسين عدنان» فى تقريره الصحفى إلى «خديجة» التى لا تعرف لماذا تطبل النساء المغربيات للمدونة - فى رأيها - لأنها هى شخصياً لم تر فيها ما يبعث على البهجة. كانت «خديجة» على وشك التزوج من شاب يعمل فى المصنع، لكن بعد صدور المدونة تراجع العريس عن فكرة الزواج، وعندما سألته «خديجة» عن السبب قال إن سوق النساء صار صعباً بعد صدور القانون الجديد. قالت «خديجة»: ماذا أعطتنى المدونة سوى أنها ضربت حياتى واغتالت أحلامى، مثلما ضربت حياة واغتالت أحلام الكثيرات اللواتى كن موعودات بالزواج؟.

قلت للمغربيات الثلاث اللواتى يجلسن إلى جوارى وأمامى فى ديوان بعربة قطار يقطع الأرض المغربية فى اتجاه الجنوب إلى مراكش: لم يمنع عدم وجود مدونة جديدة للأسرة المغربية فى ظهور أسماء نسائية مؤثرة فى تاريخ المغرب، مثل «كنزة» أم إدريس الثانى، التى أدارت دفة الحكم فى المغرب لمدة ثلاث عشرة سنة، و«زينب النفاوية» التى

تزوجت ثلاثة ملوك آخرهم «يوسف بن تاشفين» الذى كان لا يقطع أمراً إلا بعد استشارتها، و «اللاخناثة» زوجة ومستشارة السلطان المولى إسماعيل، و «مليكة الفاسى» التى وقعت إلى جانب نخبة من سياسى المغرب ومفكره على وثيقة الاستقلال.

مازحت «مريم» الغاضبة من زوجها قائلاً: أكاد أجزم أنك تضمنين على زوجك بالكلمة الطيبة، وأنتك بذلك قد ساهمت فى أن يغلق قلبه دونك. فور وصولك إلى منزل والدتك فى مراكش حادثى زوجك هاتفياً وأسمعيه بعضاً من كلام الحب الذى كنت تسمعيه إياه فى الأيام الأولى من زواجكما.

ضحكت «مريم» ونظرت إلى سهام وإلهام وقالت: الرجال المصريون أكثر قدرة على الحنان والحب، أعرف ذلك من أفلام السينما المصرية. قلت: هل تعلمون أننى أحببت فتاة مغربية من السدار البيضاء فى لندن؟ وضحكنا جميعاً حتى فاضت عيونهن بالدموع عندما علمن أن السبب الذى من أجله قطعت علاقتى بـ «ثريا المغربية» فى لندن هو أن ترحيبها بزملاء الدراسة بالمعهد لم يكن يقف عند حد السلام باليد وإنما كان يتجاوز ذلك إلى التقبيل والعناق.

قالت إلهام: هل تعرف أن مغربية مهاجرة من المغرب تدعى «فضيلة لعنان» لم تتجاوز الأربعين عاماً قد تقلدت منصب وزيرة الثقافة فى بلجيكا؟ قلت: أعرف، وهذا أسعدنى كثيراً.

المرأة الوردية.. جاءتني في الحلم ذات مساء

هل شارفت الرحلة على الانتهاء، وأنا لم أستكمل بعد في مخيلتي جمع أجزاء صورة المغرب، تلك المرأة التي جاءتني في الحلم ذات مساء؟ كيف لي أن أحدث قلبي بأن يقنع بالرحيل والإياب، وامرأة البحر ذات العينين السماويتين لم تنفته بعد من اطلاعي على ما في صندوق تذكاراتها المرصع بالصدف والفضة من أسرار وحكايات؟ هل لابد من مسافة تفصل بيني وبين المدن والأمكنة حتى يمكنني كتابتها متوسلاً بالذاكرة والتأمل؟.

ينصح الروائي المغربي «محمد شكري» بالأنا نناق مع نهر حياة المدينة التي نحب وبأن نعرف كيف نسيح فيه، وبأن نعيش يوماً ونستريح أياماً، من أجل استيعاب تجربتنا، لأنه إذا ما انسقنا مع دوامة الحياة اليومية في المدينة التي نحب، فسنصبح مدمنين على شيء ما من مباحها.

لكن من أين لي أنا بتلك الأيام التي أستريح فيها، وأيامي في المغرب محدودة وقليلة؟.

على رصيف محطة قطارات «مراكش» التي عدت إليها من جديد قادماً من «الدار البيضاء»، أجدني أتحدث إلى «عزيز الشاهدي»، القادم من مدينة «فاس» ليلحق بوحدته بالحرس الملكي بعد قضائه إجازة مع

أسرته. قلت له : أكاد أظن أنك مصرى أبا عن جد. قال : أنت كذلك ،
فى ملامح وجهك الكثير من والدى الذى يعمل فى الصناعات التقليدية
فى «فاس».

سيرا على الأقدام ، دليلنا مئذنة جامع الكتبية ، حدثنى «عزيز
الفاسى» بلغة عربية واضحة وسليمة عن «مصطفى العلوى» الصحفى
الشجاع الجرىء رئيس تحرير جريدة الأسبوع ، وعن «فاس» المكتفية
بذاتها ، المستغنية عن الآخرين ، التى لا تمنح مفاتيح أسرارها إلا لمن
يدلل على صدق عشقه لها ، والتى يتوارث سكانها أسرار صناعاتها
التقليدية مثلما يتوارثون أصول الغناء والطرب الأندلسى بأشعار
«ابن زيدون» و «الشريف الرضى».

على بعد خطوات من ساحة الفنا وجامع الكتبية ، تصافحنا ، «عزيز»
وأنا ، بعد أن تبادلنا أرقام الهواتف والعناوين ، وغادرنى متوجها إلى
عمله بالحرس الملكى الذى يوفر له ولأسرته بعض امتيازات ، وتوجهت
أنا إلى غرفتى بالفندق لكى أغير ملابسى وألحق بحفل عشاء فى أحد
الفنادق الكبرى فى «مراكش».

فى الطريق إلى مدينة «الصويرة» على البحر المحيط ، والتى تبتعد
بنحو ١٧٠ كيلو مترا عن «مراكش» فى الشرق «وأغادير» فى الجنوب ،
أنظر عبر زجاج الحافلة ، أرقب الحقول التى تنتظر هطول المطر - فى
أشهر ديسمبر ويناير وفبراير حتى ترقدى ثوبا أخضر جميلا. فلاحون
مغاربة فى إجازة إجبارية يستلقون فى تكاسل أمام أبواب الدكاكين

الفقيرة التي لا تفتقر إلى مسحة من جمال وتزيين. عند لافتة كتب عليها «وادي شيشاوة»، يسير حمار في تباطؤ يحمل على ظهره فلاحاً ينظر في السماء. قطع أغنام يتجول هنا وهناك ، بالقرب من محل لبيع علف المواشي والدواجن، بحثاً عن بقايا خضرة.

أقرأ في صحيفة عن «زاكورا» المدينة الصحراوية الصغيرة التي تقع في جنوب المغرب، وعن أبنائها الذين أصروا على عقد المنتقى الدولي للفيلم عبر الصحراء في الهواء الطلق. تشير الصحيفة إلى أنه في صحراء «زاكورا» المغربية صور المخرج «ديفيد لين» فيلمه الشهير «لورانس العرب»، وصور المخرج بورتولوتشي فيلم «شاي في الصحراء» المأخوذ عن رواية «السماء الواقية» للأمريكي عاشق المغرب «بول بولز». وفي صحراء «زاكورا» المغربية أيضا صورت مشاهد من فيلم «أوديب ملكا» للمخرج بازوليني وفيلم «مهمة كليوباترا» للمخرج آلان شابا».

أرسل البصر بعيدا إلى الجنوب، حيث الصحراء الكبرى، وقبائل الطوارق الأمازيغ، وآلة «الأمزاد» الموسيقية «تشبه آلة الكمان» تستطيع بها نساء الطوارق أن يوقعن الرجال في الحب وأن يعاقبنهم أيضا. إذ يخشى الزوج من قبائل الطوارق أن يحرم من متعة سماع الألحان العذبة التي تعزفها له امرأته كل ليلة على «الأمزاد» إذا ما أساء التصرف إليها أو اغضبها بقول أو بفعل.

تقول كلمات أغنية قديمة تتغنى بها نساء الطوارق على نغمات آلة

«الأمزاد»:

لا أريد أن يرى الدموع فى عيني
يجب ألا يعرف مدى حبي له
حتى وإن كنت أرتعش كغزال فى البرية.
وإن فلتت الأمزاد من بين يدي
سوف أنتظر وأنتظر كصياد يطارده فريسة
حتى يجدنى فى النهاية
لكن لم لا تأتى؟
أنا فى انتظارك
ستجد قلبا يحترق شوقا إليك

كما تحترق رمال الصحراء تحت أشعة الشمس

طيور النورس المهاجرة من الشمال البارد تستقبلنا على مشارف
مدينة «الصويرة» الساحلية المطلة على البحر المحيط. أوقفت الحافلة
محركها أسفل سور مرتفع لونه مزيج من الأحمر والبنى. يتبدى الميناء
البحرى المزدهم بمراكب الصيد الملونة بالأحمر والأزرق، والصيادين،
والشاطئ الرملى الأبيض، وطيور البحر.

أقول لمرافقى «صالح شكور» من «بنى ملال»، التى جاء اسمها تحريفا
لاسم قبائل بنى هلال التى سكنتها بعد قدومهم من الجزيرة العربية
ومصر: يخيل إلى أن «الصويرة» قد خرجت توا من إحدى حكايات ألف
ليلة وليلة بأسوارها العالية وأبوابها وأقواسها ومدافعها المشرعة فوهاتها
فى اتجاه البحر المحيط، بحر الظلمات فى سالف العصر والأوان.

أصعد إلى أعلى نقطة فوق أسوار القسبة، القلعة الحربية الحصينة، وأغمض عيني، لأسافر عبر القرون التي شهدت قدوم البرتغاليين من البحر واحتلالهم «الصويرة». من حولي، تصطف على سطح القسبة المدافع المحمولة على ظهر عربات حربية. هنا جاء «أورسون ويلز» لتصوير المناظر الخارجية لفيلم «عطيل»، ليجد نفسه في النهاية واحداً من عشاق الصويرة الكثيرين.

«الصويرة»، التي تستحم في مياه البحر المحيط، عند مغيب الشمس في كل مساء، ترتدى في الصباح ثوبا من الأرجوان الطالع من المحار المنتشر في عمق مياه الجزر الأرجوانية القريبة، ثم تشرع في فتح بواباتها القديمة لتعرض لعشاقها من الرسامين والشعراء والموسيقيين بعضاً من مفاتها.

الشارع، المفعم بروائح التوابل، وسماك السردين المشوى المنسم بالليمون، والشاي المننع، والسوق المزدهم بمختلف ألوان وأشكال الصناعات التقليدية، يتفرع إلى أزقة بيوت بيضاء ونوافذ زرقاء، وبين كل مجموعة بيوت يطل مرسوم يعرض لوحات تصوير وأعمال خرف ونحت ومشغولات جلدية ونحاسية وفضية.

كعادتي دائماً في المدن التي أقع في هواها، أجدني أتعمد أن أضل طريقي فيها، لعلني في مكان ما أحصل على مفاتيح أسرارها التي تضمن بها المدينة على زوارها العابرين.. هكذا ضللت طريقي داخل شعاب

«الصويرة» الفاتنة، التي لم تفتح لى صندوق تذكاراتها المرصع بالصدف والفضة إلا بعد أن أقسمت لها بأنى من أخلص عشاقها.

واجهة بيضاء لبيت تزين النقوش والزخارف بابه المصنوع من خشب العرعار المرصع بقطع من خشب الليمون، وبأشكال من الصدف والعضم والأسلاك المعدنية. مدخل البيت يزدان بأوان فخارية وخزفية ملونة بالأصفر والأخضر والبنى تشتهر بها مدينة «آسفى» الساحلية القريبة التى يفخر المغرب ويباهى بما تنتجه أيدي أبنائها من فخار وخزف. لم أستطع منع نفسى من دخول باب البيت الذى يعدنى بمباهج أكثر. على الأرضية قطعة سجاد «زربية» بربرية بها رسوم هندسية، وعلى الحائط الأيمن قطعة سجاد بربرية أخرى، تحتوى على رسوم لكائنات حيوانية تنتمى إلى «وادي شيشاوة» القريب، وإلى منطقتى «أولاد بوسبع» و «مروشة».

لا أحد فى بهو الاستقبال بالبيت البهيج. أقرأ السلام ولا من مجيب. يقع بصرى على عمل نحتى جميل من خشب أرز الأطلس المصمت، وعلى لوحة للفنان «ماتيس» داخل إطار من نفس خشب أرز الأطلس المأخوذ من غابة الهجيرات فى منطقة «ميدالت»، والذى يتميز برائحة طيبة تستمر لسنوات. إلى اليسار أريكة ومقاعد من الخشب المصبوغ محلى بزخارف هندسية مغربية أندلسية تتجلى فى رسومات الزهور والطيور والأشجار. وفى الوسط تماما منضدة عليها أعمال فنية من مشغولات النحاس والجلد والفضة.

من قلب البيت المتحف البهيج ، تتهادى فتاة مرتدية الزي
المغربى ، وجهها يشيع بهجة : أنا فاطمة ، هذا بيت مكون من ثلاث
شقق للإيجار العائلى ، شقة واحدة بكل طابق. تفضل بالصعود على
الدرج لتشاهد الشقق بنفسك. آسفة ، لا يمكننى الصعود معك ، فأنا
بمفردى فى البيت.

فى داخل الشقة المتحف بالطابق الثالث وأمامى البحر المحيط ، والسماء
الزرقاء ، والنوارس البيض ، وجدتنى أصرخ بأعلى الصوت : الله.
شارفت الرحلة على الانتهاء ، وأنا لم أستكمل بعد فى مخيلتى
جمع أجزاء صورة المغرب ، تلك المرأة الوردية التى جاءتنى فى الحلم
ذات مساء.

كيف لى أن أحدث قلبى بأن يقنع بالرحيل والإياب ، وامرأة
البحر ذات العينين السماويتين لم تنته بعد من إطلاعى على صندوق
تذكاراتها المرصع بالفضة والصدف من أسرار وحكايات؟ هل لابد من
مسافة تفصل بينى وبين المدن والأمكنة حتى يمكننى كتابتها متوسلا
بالذاكرة والتأمل؟.

صدر للمؤلف

- الحب يسألكم المغفرة (شعر)
- أمريكا سرى جداً (أدب رحلة).
- وردة الشمال: أيام في استوكهولم (أدب رحلة).
- هبة الجبل: رحلة إلى لبنان (أدب رحلة).
- شعب يوليو للروائية (نادين حوريمر) (ترجمة).
- «بيتر أرننت» أشهر مراسل عسكري في العالم (ترجمة).

تحت الطبع:

- رحلة إلى تونس البهية (أدب رحلة).
- غاورتى ملك مصر: حياة لاهية وموت مأسوى (ترجمة).

الفهرس

- السفر إلى المغرب .. قصة عاطفية ٥
- إلى بلد المحبوب .. الدار البيضاء ١٣
- الركض وراء شمس مراكش ١٩
- صورة تذكارية للجميلة النائمة ٢٥
- الأندلس .. ابنة المغرب ٣٣
- بحر من البشر في ساحة الفنا ٤١
- الموت في مضيق جبل طارق ٤٩
- «أغادير» مدينة البحر والجبل والذكريات ٥٧
- العربية وطن المغرب ٦٣
- «ابن بطوطة» يشد الرحال إلى الذات العربية ٧١
- رأيت «طارق بن زياد» على شاطئ البحر المحيط ٧٩
- في وداع امرأة البحر .. ذات العينين السماويتين ٨٧
- المدينة الحلم ٩٥
- كتابة السيرة الجماعية للمدينة الوطن ١٠١
- «مليكة الفاسي» وقعت على وثيقة الاستقلال ١٠٧
- المرأة الوردية .. جاءتنى في الحلم ذات مساء ١١٣

بقايا كل شيء
أنيس منصور

العدد
القادم

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهاً.

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.

- الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدًا أو بشيكات بإدارة الاشتراكات

بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة